

الأخلاق في شعر شوقي

رد على رد^(١)

للمؤستاذ على النجدي ناصف

يسرف بعض المعجبين بشوقي في التعصب له ، كما يسرف بعض خصومه في التعصب عليه : أولئك يريدون أن ينزله الناس معهم بأسمى من منزلته ، ويقدرونه بأكبر من قدره ، وهم لذلك لا يطبقون أن يسمعوا عنه إلا أحاديث الحمد والاعجاب . وهؤلاء يريدون أن ينزله الناس معهم دون منزلته ، ويقدروه بأصغر من قدره ، وهم لذلك لا يطبقون أن يسمعوا عنه إلا أحاديث الزرابة والانتقاص .

وهيات أن يظفر هؤلاء وأولئك بشيء مما يشتهون ، فالحقيقة آيين من أن تطمس ، وإن تراكت عليها الأغشية ، وتجمعت من حولها الحجب ، وأقوى من أن تقهر ، وإن تألب عليها الباطل ، وخذلتها الأحوال . وهي على أصحابها عزيزة ، وفي أعناقهم أمانة ، لذلك فهم لا يألون جهداً في نصرتها والدلالة عليها ، حتى تسفر لكل ذي عينين ، ويؤمن بها من كان منها في شك مريب .

ولقد تمتحن الحقيقة بعض الأحيان بما يغمطها ، ويغير من سمتها ، ويثاب الباطل بما يرفع ذكره ، ويعظم أجره ، حتى يغلب الإشفاق كل غيور ، ويساور اليأس كل مشفق ، ويخيل إليه أن لم يبق في الأرض إلا الفتن والضلال ، ولا يمكن الذي لا ينبغي أن يكون عليه خلاف ولا فيه ريب أن الظفر آخر الأمر للحقيقة ، والخذلان للباطل وإن طال الزمان .

(١) أطلعت إدارة الصحيفة الأستاذ النجدي على نقد الأستاذ الخطيب فأعد هذا الرد عليه ولكن الصحيفة أرجأت نشره في العدد السابق حتى أنشر بقية نقد الأستاذ الخطيب في هذا العدد .

وكم من علم واثاه الحظ ، وحاباه العصر ؛ فقال أكثر مما يستأهل بل
أكثر مما يرجو وآخر أدبر حظه ، وجافاه عيسره ؛ ففأش خاملا مغبونا ،
وقضى قبل أن يدرك من دنياه أربا ، ثم مالبت الناس بعد أمد طويل أو
قصير أن رأوا الحق يعلو ، والباطل يهوى . رأوا هناك أغشية ترفع ، وحجبا
تزال ، وصوتا يجهر ثم يمضي في الجهر حتى يملأ الدنيا دويا ، ورأوا هنا شجبا
يتخاذل ، ثم يتحطم ويتضائل ، ورأوا من حوله ضجة تحفت ، ثم تمضي في
الحفوت حتى تقطع نأمتها ، ويشملها صمت أصحاب القبور .

ولم يتح لشوقي بعد أن يدرس الدراسة الحقيقية به ، على ما كان له في
حياتنا الأدبية من أثر غير منكور ، فلا يزال علم الناس به ناقصا ، وآراؤهم
فيه مشوبة ، وهذا بلا ريب تقصير في جنب الرجل ، لا ينبغي أن يطول أمد
أكثر مما طال ، فعسى الأدباء أن ينشطوا لدراسته ، ولا يتوانوا في الكشف
عن منزلته التي يؤهلها فنه لا التي تريدها له الأهواء ، تعصبا له أو تعصبا
عليه . ويسرفني أني خطوط في هذا المجال خطوة ، وليس هنا مقام إعلانها أو
الحديث عنها . فحسبي أن أشير إليها ، ثم أتوجه إلى الله بالرغبة الخالصة أن
يعينني على إخراج أثرها عما قليل . وأعتقد أن شوقي رحمه الله كان يكره
الغلو ، ولا يرضاه للناس مذهبا ولا مشيرا ، أخذنا من قوله :

ليس الغلو أمينا في مشورته مناهج الرشده قد تخفى على الغالي
فإذا كان رحمه الله قد أنكر من بعض خصومه الغلو في انتقاصه والغض
من شعره ، فهو ولا ريب حقيق أن ينكر من بعض أنصاره الغلو في التشيع
له والثناء عليه .

غير للسرفين من هؤلاء وهؤلاء أن يدبروا أمرهم ويرفقوا بأنفسهم ،
فيروضوها على الهدوء والاحتمال ؛ فقد آن أن يسمعوها عن صاحبهم منذ
اليوم كثيرا بما يكرهون . وما يقصد أحد بذلك أن ينقص عليهم ، أو يسيء .

إلى أحد منهم ، ولكنها الحقيقة الصريحة يجب أن يقال في غير موارد ولا خداع ، وبعض ما يصنعون مع ذلك كاف وزيادة ، وليس منه على كل نفع ولا خير . والله الهادي إلى سواء السبيل . وإن الذين قرءوا مقالاً عن « الأخلاق في شعر شوقي » ، وقرءوا رد الأستاذ عناني الخطيب عليه ليملون . أنه من غلاة الشوقيين ، لامن كلامه عن صلته به وصدافته له فقط ، ولكن من جملة رده ومن طريقته في الرد أيضاً .

فقد أخذ على المقال أول ما أخذ أنه كان لا بد فيه من الحديث عن أخلاق شوقي وأخلاق الناس في عصره . وهو مأخذ كان يمكن أن يكون صحيحاً لو أن مقالاً كان موازنة بين الأخلاق في شعر شوقي ، والأخلاق في نفسه وبيئته ، لكنه كان لسوء الحظ عن « الأخلاق في شعر شوقي » ، ليس غير . أى عن الأخلاق كما رآها الشاعر ، وكما استطاع أن يصورها للناس في شعره . وفرق بين الموضوعين عظيم . ذاك بحث فلسفي أكثر منه فنياً ، يتجه إلى الفضائل في شعر شوقي ، فيحصي جملتها ، ويبين أنواعها ، ويسمى كلامها باسمه الخاص ، ثم يتجه إلى نشأته وبيئته ، يتلصص فيها بمصادر تلك الفضائل وأسباب القصد إليها والقول فيها دون سواها . وهذا بحث فني أكثر منه فلسفياً يتجه إلى الفضائل في شعر شوقي ، يتعرف مبلغه من التوفيق في تصويرها ، ومبلغ النقد من الإنصاف حين سماه وحده شاعر الأخلاق .

ولا شك أن بين موضوعنا وبين أخلاق الشاعر وأخلاق الناس في عصره صلة ، ولكنها ككل صلة بينه وبين شخصية الشاعر ، تتصل به من بعيد ، وتتصل بغيره من قريب ، فتكون به أشبه ، ويكون هو بها أحق . فلو أن شوقي كان في نفسه ملكاً ، وكان الناس من حوله شياطين أو ملائكة مثله ثم لم يقل في الفضائل شيئاً ، أو قال فيها ، ولكن لم يشتهر بها ، وينسب إليها ما عانا أمره ، ولا فكرنا أن نكتب عنه المقال الذي كتبناه . إذا لتكن

أخلاق شوقي وأخلاق عصره معه ما تكون ، وليكن حظه من الفضيلة وحظ عصره معه كذلك ما يكون . فالشيء من هذا أردنا ، ولا إليه توجهنا ، وليس لنا فيه نفع ، ولا بنا إليه حاجة في هذا المقام .

وما أحسب الأستاذ عناني إلا يعلم ذلك ويؤمن به ، لكن العصبية الغالية قبجها الله ، أنسته عليه ، وزعزعت إيمانه ولم تبال أن تزين له اغتنام هذه الفرصة لامتداح صاحبه ، والإشادة بمناقبه ، مع أنها ليس من الموضوع ولا الموضوع منهما في شيء ، وآنس هو من ذلك راحة نفس وقرة عين ؛ يخف له ، وأمعن فيه حتى جعل له الشطر الأول من رده ، كأنتا حين نلنا من بعض شعر الشاعر في الأخلاق إنما كنا نال من فضائل نفسه في حقيقة الواقع . وليس يسعنا على كل حال إلا أن نذكر للأستاذ عناني غيرته على سمعة صاحبه ، وتجرده للدفاع عنه ولو أنه دفاع لا يقابل هجوما إلا في الخيال ولا مندوحة لنا مع ذلك أن نستأذنه في ترك القسم الأول من رده ، لانعرض له بقول ، لأنه لا يعنيننا ولا نغنيه فيما نحن بسبيله الآن .

وأول ما يلقانا به الأستاذ عناني في مستهل القسم الأخير من رده — هو هذا الحشد الكبير من شعر شوقي في المدح والثناء ، وفي وصف النصر والهزيمة ، وفي غير أولئك من مقاصد الشعر ، يريد أن يقول . إن شوقي قد صنع بها للأخلاق ما لم يصنع الشعراء ، فان يكن ذلك فمعجيب ، فإنما المراد هنا بحكم التفرقة والتمييز بين الأشياء — شعر شوقي في الأخلاق خاصة ، يرسله حكمة أو مثلاً . أما شعره في الأخلاق كما يصفها في بمدوح أو مرثي ، أو في جيش مظفر أو منهزم فليس هناك . لأنه لا يمس الأخلاق قصداً ، ومن طريق مباشرة . وهو بعد عمل مشترك ، لكل واحد من شعراء المدح والثناء والوصف منه نصيب . فلو كان له حساب في المفاضلة بين شعراء الأخلاق لكان غير شوقي أحق منه بلقب شاعر الأخلاق ، فليس هو بأمدرح

الناس وأرناهم وأوصفهم ، ولا هو بأكثرهم في ذلك قولاً ، ولا أطولهم فيه نفساً ، ولا أوسعهم مجالاً ، بل ربما كان من الخير ألا يذكر شعراء المدح والرثاء حين الكلام عن الفضائل ، فقد أساءت جملتهم إليها أكثر مما أحسنت ويرى الأستاذ عناني بعد هذا أن ليس بعجيب أن نجد شوقي يدير الأخلاق على معاني البناء وأحواله ، والبناء وأجزائه كما قلت في بعض ما أخذني عليه ، ويعتدل ما ذهب إليه من ذلك بأن أخلاق المصريين في عصره كانت في حاجة ماسة إلى مثل هذه الروح القوية . ولك أن تسأل الأستاذ إن شئت: أي روح هذه التي يشير إليها ، ثم يعود فيصفها بالقوة ؟ أما أنا فأسأل سؤالاً ثانياً لا بد من توجيهه إليه ، أسأل عن البناء : أليس في الوجود شيء آخر أشد منه قوة ، وأمنع مثلاً ، فيتحذه شوقي مداراً لشعره في الأخلاق حين تكون مصر لعهد في حاجة إلى مثل هذه الروح القوية ، كما يقول ، على أن الشاعر إذ يدير شعر الأخلاق على معاني البناء لا يتخير نوعاً منه موصوفاً يقيس إليه ، ويشبه به ، ولكنه يذكره مطلقاً شاملاً ، وهذا يعني أنه لم يرد معنى القوة ولا فكر فيه ، ولكن أراد معنى التراكب والأقامة أوسع ما يكون . وسؤال أخير لا أرى بداً من سؤاله هنا أيضاً . فما رأى الأستاذ في الشاعر يكرر معناه في موضوع ما غير مختلف في الجوهر والصميم ، ويؤلف صورة من فكرة واحدة ثم يزجها على هيئة واحدة كذلك أو هينات متماثلة في الألوان والأشكال ؟ وهل يرى أن من العدل وبراءة النقد أن يقول قائل عن مثل هذا الشاعر : إنه قد صنع لموضوعه شيئاً ذا قيمة فضلاً عن أن يقال إنه قد بذ فيه الأنداد والنظراء ؟

ويعجب الأستاذ عناني لطريقتي في رواية النصوص الأخلاقية ، ويردف تعجبه هذا بما يدل على أنني تعمدت اقتضاها لأصل إلى غايته ، التي لا ترضيه ولا يوافقني عليها ، أي إلى غمط شوقي والنيل من شعره ، فإذا ما مضى يستشهد

لما يقول - لم يذكر لنا غير النص الذي رويته من قصيدة مملكة النحل ،
والذي رويته من نهج البردة ، وأود قبل كل شيء أن أغفر للأستاذ عناني
هذه التهمة ، لأني على ثقة أنه لم يتعمدها ، ولكنه انساق إليها بتحريض
العصية لصديقه ، ثم أعود إلى ما كنت فيه . قال الأستاذ عناني : فالآيات
التي قالها شوقي في مملكة النحل لا يتم معناها إلا بما بعدها ، ثم روى على
الأثر هذه الآيات :

أليس في مملكة النحل لقوم تبصره
ملك بنه أهله بهمة ومجدره
لو التمت فيه بطال الدين لم تره
تقتل أو تنفي الكسا لي فيه غير منذرة

وهذه الأضافة كما يرى القارىء لا تتكلم عن الأخلاق كما نريدها ،
ويريدها معنا عنوان البحث ، ولكنها تصف الأسس التي تقيم النحل ملكها
عليها ، والسياسة التي تلتزمها في حياتها ، تقصيا لموضوع القصيدة ، ومتابعة
للقول عن النحل ، ثم تلتفت فتساءل : أليس للناس في هذا تبصرة وذكرى .
وهذا شيء وتصور الأخلاق شيء غيره . والدليل على أن شوقي إنما أراد
بهذه الآيات مجرد الدرس واستخلاص العبرة أنه يذكر فيها أن النحل تأخذ
الكسالى من أنفسهم بالقتل أو النفي من الأرض ، دون أن تنصح لهم أو
تعذر إليهم :

تقتل أو تنفي الكسا لي فيه غير منذرة
ويذكر عنها بعد ذلك أنها تولى عليها أنثى منها ، فتسير فيها سيرة القياصرة
المستبدن :

تحكم فيه قيصره في قومها موقره
من الرجال وقبور د حكمهم محرره

وأعتقد أن شوقي لا يقر أمثال هذه المبادئ ، فضلا عن أن يدعو إليها ويريد الناس على الأخذ بها فلم يعرف أنه كان امرأ عطوفا ، يفيض رحمة وبراً ، وأنه كان من الداعين إلى حكم الشورى ، والمؤمنين بصلاحه ، وله في ذلك قصائد مشهورة .

أفرأى الأستاذ عثاني أنى حين تركت هذه الآيات إنما تركتها لأنها فقط لا تصل بموضوعي ، وأنه حين يضيفها إلى ما جئت به واقتصرت عليه إنما يسيء إلى صاحبه ، ويحمله تبعه ما ليس من طبعه ولا رأيه .

ويعضى الأستاذ عثاني في الحديث عن طريقي في إيراد النصوص الأخلاقية ، فيقول عن البيت الذي جئت به من نهج البردة :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم
لا يتم معناه الفنى إلا بالبيتين التاليين :

والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم
تظفى إذا مكنت من لذة وهوى طغى الجياد إذا عضت على الشكم
وعندى أن البيت الأول من هذين البيتين لا يعدو أن يكون شرحا لغير غامض ، أو تفصيلا لغير مجمل ، فهو زيادة في العدد لا في الفكرة ؛ لأنه إذا كانت الفضائل كما يقول البيت الذي جئت به ، تصلح أمور الناس ، وتقوم نفوسهم ، كان معنى ذلك أن الناس بخير ما تمسكوا بها ، فإذا تخلوا عنها صار أمرهم إلى الشر والفساد . وهذا كل ما يقوله البيت الذي يليه ، فلا جديد إذا ولا ابتكار . أما البيت الأخير فمن قول البوصيرى :

من لى برد جماح من غوايتها كما برد جماح الخيل باللجم
أفرأى حضرة الأستاذ أن صاحبه في هذه الآيات ليس كأحد من المتقدمين في شعر الأخلاق فيلسوفا في شعره ، أو شاعرا في فلسفته ؟
يروى الأستاذ بعد ذلك ثلاثة نصوص من شعر شوقي ، ثم يذكر أنه

يعتقد أنى أوافقه على أنها تحتوى صوراً لا تقل عن صور النصوص التي رويتها لغير شوقي ، وانتهيت بها إلى تفضيلهم عليه . وللاستاذ عناني أن يعتقد ما يشاء ، أما الواقع فهو أنى لا أرى نصوص شوقي تدنو شيئاً من تلك النصوص بله أن تجرى معها في مجال .

أما النص الأول فليس فيه من صور الأخلاق غير أن كثر رضعها من أمه لبنا ، ورآها في شخصها مثالا ؟ وهذا بعينه ما تقوله العامة في هذا المقام ، ولا داعي لإيراده فهو متعالم مشهور . وأما النص الثاني فليس مما نحن فيه ؛ لأنه لم يحىء عن الأخلاق إلا بلفظها إذ يقول عن ابن زيدون :

ما رأى الناس شاعرا فاضل الخلق طيبا

أما النص الثالث فالصورة التي فيه من قوله تعالى : وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية . ومن قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلته وإن يرق أسباب السماء بسلم

ويقول الأستاذ عن الأبيات التي رويتها لابن الرومي في الحقد : إنها ضحلة ؛ لا عمق فيها ولا فلسفة ... وليس يكفي أن يقول قائل عن شيء : إنه كذا وكذا ، أو ليس كذا وكذا (بدون إبداء الأسباب) حتى يكون على ما قال بل لا بد في ذلك من البيان والاحتجاج والتعليل ، ثم يتكلم حضرة بعد هذا كلاما فلسفيا عن الحقد ومعناه ، والحقد وأنواعه ، ولا شأن للموضوع به ، فإنما الموضوع أن ابن الرومي دافع عن الحقد وأصحابه دفاعا شعريا فلسفيا رائعا ، يدل على براعة وعبقرية ، هما بعض ما أجمع الناس عليه من مزاياه . وما أرى الأستاذ عناني بما فعل إلا متكلفا ما ليس بلازم أن يتكلفه ، لولا العvisية لشوقي . فالغرض من ابن الرومي شيء ، وبراعة شوقي أو عجزه شيء آخر ، وقد يسقط ابن الرومي في بعض شعره سقوطا فاحشا ، ولكن

هذا لا يرفع شوقي شيئا ، ولا يجدى عليه من النفع قليلا ، إلا إذا كان حضرة الأستاذ يرى أن المقادير قد ألفت بالشاعرين في كفتي ميزان ، وجعلت انتقاص أحدهما رجحانا للآخر وزيادة في وزنه .

كنت قلت عن بيت شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
إنه قد نال من اتساع الشهرة ، وذبوع الرواية أكثرها مما يستأهل ، وأحصيت عليه ثلاثة مآخذ كشفت بها عن قيمته الحقيقية أولها أنه يجعل الأمة في وجودها وبقائها رهنا بالأخلاق ليس غير ، مع أن هناك عوامل أخرى لها في كيان الأمة شأن أى شأن كالعلم والصحة والمال ، فلم يوافق الأستاذ عناني على هذا وساق إلى ردا عليه قول الدكتور هيكل باشا في مقدمة الديوان عن رأى شوقي في الأخلاق . وقد نقله الأستاذ عناني في القسم المنشور من رده في هذا العدد ، فلا حاجة إلى إعادته هنا . ولا أقول للقارئ الكريم : اقرأه ، واعجب ، ولكني أقول له : اقرأه ، واعذر ؛ فما كان الأستاذ عناني ليأخذ على هذه الحطة ، ولا ليتورط فيما تورط فيه لولا العصية الغالية قاتلها الله . على أننا إنصافا لها ، نذكر أنها بالإضافة إليه ليست شرا محضا ، ولا قرين سوء في كل حين ؛ فقد تحمل التبعة عنه ، ولا تحول بينه وبين الاعتذار .

نعم ، فقد اتخذ الأستاذ عناني سبيله إلى المغالطة ، وحمل كلام هيكل باشا ما لا طاقة له به ، فأنا إنما أنقد بيتا رأيته معيبا ، وأقيم الحجة على قصوره ، وغفلة النقد عنه . فلا شأن لي إذا برأى شوقي في الأخلاق ، لأن هذا الرأي لا يلمس في بيت واحد ، ولكن في جملة شعر الأخلاق ، وآية ذلك أني رويت في آخر مقال مقطعة له في الأخلاق ، وقلت في التهيد لها هذه العبارة : وقد استطاع شوقي في قصيدة ذكرى المولد أن يتلافى هذه المآخذ

في مقطعة منها ، عرض فيها للأخلاق وآثارها بالحديث والبيان . ثم قلت في خاتمة المقال : فلا يجوز بلا شك دخل كبير في هذا القصور : الذي ذكرنا في بيته المشهور .

أما هيكل باشا ، فيعرض رأى شوقى في الأخلاق ، ويدل على مبلغ ثقته بها في بناء الأئمة ، فأنا في جانب ، وهو في جانب آخر ، والمدى بيننا بعيد ، والنتائج التي تنتهى إليها لا محالة متخالفة ، فكيف إذا يتصور أن يكون خلافه لى رجا على ، أو خلا فى له ردا عليه ؟ وقد كان هذا كما ترى كافيا جدا فى إغفال كلام هيكل باشا وإخراجه من الميدان ، ولكننى مع ذلك أرغب إلى القارىء أن يفضل بالرجوع معى إليه ، وأن يصبر على معاودة النظر فيه ، لئرى ما يدل عليه ، والغاية التي يقصد إليها صاحبه به . ألقى بالك غير مأمور إلى هذه الكلمات منه : فشوقى يرى أن الأئمة ... وهو يرى ذلك برغم ... فالعلم عنده ... وليس معنى هذا أن شوقى الخ الخ . فالرجل كما ترى يستخلص ، ويعرض ، ولا مزيد . وأين هذا مما يريد الأستاذ عنانى أن يكون ؟

ولا محل إذا لما يأتى به الأستاذ بعد ذلك من شعر شوقى لتوضيح كلام هيكل باشا فيما يقول ؛ وإنما هو توضيح لغير ذى موضوع كما يقولون . وقلعت فى ختام هذا المأخذ : وكان خيرا للبيت ... أن يودعه الشاعر مقومات الأئمة كلها ... ثم يختص الأخلاق بما هى أهل له من إيثار ؛ ففهم حضرة الأستاذ أنى أريد الشعر أن يقيم فى وزارة الخارجية البريطانية ، يتلقى عن أساطينها مقومات الأئمة وطريقة بنائها ، حتى إذا حذقها قصد إلى الشعر ، فنظمها وآثر الفضائل عليها فى بيت مؤلف من عشر كلمات . وأؤكد لحضرة الأستاذ أنى أبصر بمازق الشعر ، وصعوبة موالجه من أن أريد هذا أو أفكر فيه ، وأنى أرفق بصاحبه ، من أن أجشمه هذا أو بعضا منه .

ولكن الذى أريد أن يجمع أساس الملك كما جمع بعضها غير مضطر ولا مضيق عليه فى الشرط الأول من بيته :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم . لم يبن ملك على جهل وإقلال
وأن يصنع للفضائل من بين هذه الأساس مثل ما صنع للصدق من بين
العادات غير مضطر ولا مضيق عليه أيضا فى بعض الشرط الأخير من بيته
والصدق أرفع ما اهتز الملوك له . وخير ما عودا بنا فى الحياة أب
أفراى الأستاذ أنى لم أكلف شوقى شططا حين اقترحت ما اقترحت
لإصلاح البيت ؟ وكان ثانى المآخذ على البيت أنه يعنى بالأخلاق الفضائل
وعندى أنه تخصيص لا ضرورة إليه ، ولا فائدة منه ، وبخاصة أن الاصطلاح
العلمى جرى على تفسير الأخلاق بالطبائع مطلقا ، وأن الاستعمال الأدبى
لا يخالف الاصطلاح فى ذلك . وقد جئت له بأمثله من كلام الله ورسوله
وكلام شاعر قديم . وقد رد الأستاذ عنائى على ذلك بقوله : ونحن نوافق
على الرد لا على المآخذ ، وليس بعد كلام الله ، ولا كلام رسوله اصطلاح .
فالأستاذ كما ترى — لم يشأ أن يبين لنا كيف استطاع أن يقاب استدلالنا
فيجعله علينا لا لنا ، ويخيل إلى أنه رأى فى مجرد استعمال القرآن والحديث
لكلمة خلق فى مقام المدح — آية على صحة استعمال شوقى وخطأ رأبى فى هذا
الاستعمال فإن كان هذا — وليس يدولى وجهه سواء فعجيب ، لأنه يكون قد
نظر إلى بعض التركيب ، وأعرض عن بقيته ، كالذى ينهى عن الصلاة
بآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى :

فإنه تعالى يقول لرسوله : وإنك لعلى خلق عظيم . والرسول يقول :
ليس شئ أثقل فى الميزان من حسن الخلق ، فيخصص الله الخلق فى الآية
بصفة العظمة ، ويخصصه الرسول فى الحديث بوصف الحسن . ومعنى
ذلك أن الخلق وحده لا يدل على أكثر من معنى الطيبة ولما كان

المقام للدح في الآية، وتحبيب الفضيلة في الحديث - لم يكن بد من زيادة صفة كاشفة، معينة للبراد هنا وهناك : ولو كان معنى الخلق مرادفا لمعنى الفضيلة لم يكن هناك داع للوصف بالعظمة ثم الوصف بالحسن .

وأما المأخذ الثالث فهو أن البيت يجعل بقاء الأمة رهنا بأخلاقها : تبقى ما بقيت ، وتذهب إذا ذهبت . ورأى أن هذا على إطلاقه ليس بصحيح فقد ذهب الإسلام بكثير من أخلاق عرب الجاهلية ، فلم تذهب بذهاها ولنسكها جامت ، وصححت ، وملأت الدنيا حضارة وخيرا . وزد الأستاذ عناني على ذلك هو : أن الإسلام خلق العريب من جديد ، وأن عرب الجاهلية بأخلاق الجاهلية أمة ، وعرب الإسلام بأخلاق الإسلام أمة .

ولقد تقبل هذا من الأستاذ عناني شعرا وخيالا ، يراد به أن الإسلام قد أصلح نفوس العرب إصلاحا أصيلا شاملا ، حتى كأنه خلقها خلقا جديدا ولكني لا أظن أن أحدا يمكن أن يقبله منه حقيقة جارية ، تمثل الواقع من الأمر تمثيلا لا تجوز فيه . وإلا فقد قبل أن عمر بن الخطاب مثلا كان في الجاهلية شخصا ، وأصبح بالإسلام شخصا آخر ذهب الله بينيته الأولى مع دينه الأول ، وجاء بينة له جديدة مع دينه الجديد .

أما بعد ، فما رأى حضرة الأستاذ عناني الآن في قوله : إن الحقائق يجب أن تمحص قبل أن تجرى بها أقلام ... ؟ أليس يرى أن الأمر فيما يتعلق بي كان عند قوله ، فلم يجر قلبي في مقالتي عن شوقي بجملة أو لفظة من جملة دون نقد وتمحيص ، وأن الموضوع لم يفد من هذا الجدل الذي أثاره غير المعاودة والتكرار في أكثر الأحيان .

على أنني أشكر لحضرته حسن ظنه ، وبراهم فصده . وسلامة دواعيه .
وسلام له وإكباره ؟
على التجدي ناصف